

رحلتى إلى تونس

هناك بلاد يظل الإنسان يحلم برؤيتها حتى يزورها . وعندئذ تكون النتيجة : إما إما يذهب إليها مرة أخرى ، أو أن يعاود زيارتها كلما أتاحت له الفرصة .

وقد كانت تونس بالنسبة لى أمنية رجوت أن تتحقق ، حتى زرتها أخيراً بمناسبة مؤتمر علمى عقد فى جامعته عن الفيلسوف المصوفى الكبير محيى الدين بن عربى. وهناك استقبلنا الطقس فى المطار بما لا نحب : هواء بارد جداً ، وبعض الأمطار المتقطعة ، لكن الشوارع نظيفة ، وحركة المرور ، على الرغم من شدتها عند الذروة ، مناسبة . أما البيوت فهى متواضعة يعلو بينها من مكان لآخر مبنى حديث . لكن الطابع العربى غالب . والناس فى الشوارع نشطاء ، ومعظمهم من الشباب ، بعضهم يقف على النواصى لا أدرى لماذا ؟ أما المقاهى فهى صغيرة جداً ، لكنها مليئة بروادها . والقهوة هى الشراب المفضل للتونسيين . نحن فى مصر نفضل المشاى . صور الرئيس زين الدين بن على حينئذ معلقة فى كل مكان ، وبخاصة داخل الدكاكين . والتليفزيون التونسى له قنواته الخاصة ، ويستعين بقناتين من فرنسا ، إلى جانب الفضائية المصرية . وهذا ما يجعل اللهجة العامية المصرية معروفة تماماً هناك . لكننا نحن الذين نحتاج إلى الإصغاء الجيد للهجة التونسية الخالصة لى نفهمها .

أما الأرقام التي نكتبها فلا يعرفها التونسيون ، حتى الذين يعملون في الفندق ، سألوني أن أكتب رقم التليفون المطلوب بالأرقام الأجنبية حتى يتمكنوا من قراءتها . هم طبعاً يقولون إن أرقامهم هي الأرقام العربية الأصيلة ، وأن أرقامنا تلك التي نستخدمها في مصر والمشرق العربي كله وافدة من الهند . إنه خلاف بسيط لا يهم. لكن الأمر الذي كان سهلاً بالنسبة لي ، هو أن معرفتي بالفرنسية جعلتني أفهم بسرعة ما يدخله التونسيون في حديثهم العربي من تلك اللغة الأوربية . الجميع هنا يعرضونها ، ويستطيعون الحديث بها ، لكنهم يفضلون مزجها باللغة العربية في حديثهم الدارج .

في الجامعة ، ومن خلال نظرة سريعة ، لاحظت أن نسبة الفتيات أكبر من نسبة الشباب لكنهم جميعاً على درجة جيدة من الأناقة والبساطة . وإقبالهم على العلم والمناقشات واضح جداً ، وهم يسرون مسرعين ، وقلما تجد فيهم من يقف متكاسلاً . الأساتذة أيضاً أكثر نشاطاً . ولما شك أن النشاط يعدى . وهذه هي العدوى الجيدة .

أما في السوق الشعبي ، الذي يشبه إلى حد كبير خان الخليلي بالقاهرة ، فهو أكثر اتساعاً ، وطرقاته مرصوفة بالبلاط القديم ، كما أنها ضيقة للغاية ، والمحلات فيه متراسة إلى جوار بعضها : محلات الذهب ، والفضة ، والتمور ، وزيت الزيتون ، والأحذية والملابس التونسية المزركشة إلى جانب بعض الأنتيكات .. وأجمل ما يقابله الزائر أقفاص الطيور المصنوعة بدوق خاص . لكن كيف يحملها معه مسافر الطائرة ؟

السوق شبه فارغ إلما من البائعين . والحركة التجارية راكدة تماماً . فالسياحة متوقفة منذ أحداث سبتمبر الماضي . لكن الناس تنتظر ، وتتوقع ، وتأمل أن تحدث انفراجه قريبة . أما أسواق الخضار ، وقد زرت إحداها ، فهي منتعشة . لأن الناس يظلون يأكلون حتى لو توقفت السياحة تماماً .

تحاول تونس أن تبدو مدينة أوروبية ، لكنها لا تستطيع . فأهلها عرب أصلا . وهم تحت الملابس الأفرنجية متدينون . لكنهم أكثر حيوية ونشاطاً من كثير من إخوتهم في البلاد العربية المجاورة . لذلك فإنهم ينجحون عندما يعبرون البحر المتوسط لكي يعملوا في أوروبا ، التي تحسن استقبالهم ، وتفتح أمامهم فرص العمل والتجارة .

قيل لي وأنا في مدينة تونس إن هناك أماكن كثيرة رائعة ، سواء على الشاطئ ، أو في مزارع خضراء تشبه النعيم . لكنني لم أتمكن من الذهاب إليها . فقد كان وقت المؤتمر يومين ، قضينا معظمهما في الحديث والاستماع والمناقشات .

كما أن التأشيرة التي حصلت عليها لم تزد عن أسبوع ، وتعجبت من أن التأشيرة التي أحصل عليها لدى دولة أوروبية لا تقل عن ستة أشهر . لماذا ؟ لعلهم يريدون ألا يقيم عندهم الزائر طويلاً لأن البلد صغير ، أو لأنهم يريدونه أن يعود إليهم أكثر من مرة .

عموماً تحياتي لتونس التي لم أشاهد فيها سوى العاصمة بمبانيها الحجرية وشوارعها الأسفلتية ، انتظارا لزيارة أخرى قد أشاهد فيها تونس الخضراء ..

[عودة](#)